محاضرات مقياس قضايا النقد الأدبي القديم

الأستاذة: فوزية سعيود

المستوى: سنة ثانية ماستر أدب قديم، الفوج:01، السداسي الثالث.

المحاضرة الثالثة: قضية اللفظ والمعنى.

تمهيد:

تُعدّ قضية اللفظ والمعنى واحدة من القضايا المهمة في تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إذ شُغل النقاد والبلاغيون العرب بذلك منذ عهد مبكر، وكان الاختلاف في أيهما أفضل الألفاظ أم المعاني، وانقسم النقاد في ذلك ثلاثة أقسام:

_ قسم اهتم بالألفاظ وفضلها على المعاني.

_ قسم اهتم بالمعاني وفضلها على الألفاظ.

_ قسم ثالث اتخذ موقفا معتدلا اهتم بالألفاظ والمعاني على حد سواء واعتبرهما بمثابة الروح والجسد.

فمن الذين انتصروا للمعنى وقدموه أبو عمرو الشيباني والآمدي وأبو تمام والمتنبي وابن الرومي وابن الأثير، وهم لم يسقطوا من شأن الألفاظ في الكلام، ولكنهم يؤخّرون مرتبتها وتأثيرها، وينزلونها في الأهمية مرتبةً تاليةً للمعنى، وقد بنوْا رأيهم على أن المعاني هي ضالةُ الناس وغايتُهم وأنهم يتكلمون للدلالة عليها ويلبسونها الألفاظ للإبانة عنها، فما الألفاظ إلا وسيلة لتلك الغاية.

ومنهم من ينتصر للألفاظ ويفضلونها ويشيدون بقيمتها، ويحفلون ببهرج اللفظ وصياغته، فلا بد عندهم أن يستوفي الشعر والنثر خصائص الصياغة الفنية. ولعل الجاحظ أول من أثار اللفظ حيث اعتبر الألفاظ هي الأساس في تقدير القيمة الفنية للعمل الأدبي، لأنه كان يهتم كثيرا بجمال الأسلوب والصياغة بما يكسوها من حلل الألفاظ، مستندا في ذلك على عبارته الشهيرة:« والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجميّ والعربي، البدويّ والقرويّ، إنما الشأن في إقامة الوزن وتخيّر اللفظ...».

أما "ابن قتيبة" فقد قسم الشعر إلى أربعة أضرب باعتبار اللفظ والمعنى وحدد على أساس ذلك الجودة والرداءة وهذا كما يأتي:

_ لفظ جيد ومعنى جيد وسماه ما حسن لفظه وجاد معناه.

_ لفظ جيد ومعنى رديء: وهو ما حسُن لفظه وحلا فإذا فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى.

_ معنى جيد ولفظ رديء: وهو ما جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه.

_ لفظ رديء ومعنى رديء: وهو ما تأخر لفظه وتأخر معناه.

بهذا التقسيم الرياضي إن جاز القول يتبين لنا أن المعاني عند ابن قتيبة تتفاوت جودة ورداءة وهي ليست كما زعم الجاحظ مطروحة في الطريق، ومن هنا فالقيمة الفنية للعمل الأدبي عند ابن قتيبة تكون إذا استوفى شروط الجودة في الفكرة(المعاني) والصورة(الألفاظ).

وكان "بشر بن المعتمر" يسوي بين الألفاظ والمعاني كما ذكر الجاحظ في البيان والتبيين، يقول:« ومن أراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كرينا فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ومن حقهما أن يصونهما عما يفسدهما ويهجنهما».

وعناصر الشعر عند "قدامة بن جعفر" أربعة وهي: اللفظ والمعنى والوزن والقافية.

اللفظ ينبغي أن يكون سهل المخارج عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة، وتكون المعاني جيدة عندما تكون موجهة إلى الغرض المقصود الذي يرده إلى المديح والهجاء والنسيب والمراثي والوصف، وبذلك يتعرض إلى ذكر الألفاظ والمعاني دون أن يوازن بينهما أو يفضل أحدهما عن الآخر.

هذه هي نظرة بعض النقاد في المشرق إلى قضية الألفاظ والمعاني، فما هي نظرة النقاد في المغرب العربي إلى هذه القضية؟، فهل هي مجرد إعادة للموضوع، أم فيها شيء من الإضافة؟.

فلقد لخص "عبد الكريم النهشلي" رأيه في هذه القضية التي لخصها عنه تلميذه "ابن رشيق".

فالكلام الجزل هو الألفاظ القوية المعبرة، وإذا كان البيت الشعري يحتوي كلاما جزلا فذلك يغنيه عن المعاني الجميلة اللطيفة وليس العكس، فالمعاني اللطيفة إذا وجدت في القصيدة فإنها لا تغني عن الألفاظ الجزلة المعبرة، وهذا معناه أن الشعر في حاجة إلى ألفاظ مختارة قبل المعاني لأن الألفاظ الجميلة تتضمن المعنى الجميل، من هنا فإن "عبد الكريم النهشلي" يكون من القائلين بتقديم الألفاظ وتقويمها على المعاني، وقد لاحظ "ابن رشيق" ذلك على أستاذه عندما قال:« وكان عبد الكريم يؤثر اللفظ على المعنى في شعره وتآليفه».

وقد نقل لنا في معرض حديثه عن اللفظ والمعنى رأي بعض الحذاق كما عبر هو، قال بعض الحذاق:« المعنى مثال واللفظ حذوه واللفظ يتبع المثال فيتغير بتغيره ويثبت بثباته»، ومنه قولهم عن رجل بليغ« معانيه قوالب لألفاظه».

ومما يمكن ملاحظته أن الأمر كذلك بالنسبة "لأبي إسحاق إبراهيم الحصري"، و"أبو عبد الله محمد بن شرف" وقد أورد فقرة موجزة لم يحدد فيها موقفه بوضوح فقال:« ثم اعلم حفظك الله أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني محصورة معدودة ومحصرة محدودة».

ومنه فإن "الحصري" قد فرق بين الألفاظ والمعاني ورأى أن الإبداع في فن الشعر يتوقف على المعاني ويعتمد عليها لأنها تتجدد باستمرار.

من هنا، فالمعاني تتفاوت تبعا للبساطة أو العمق في تفكير الشاعر، فمن كان من الشعراء نظره بعيدا وخياله واسعا يستطيع أن يأتي بالعجب العجاب، ومن كان تفكيره محدودا جاءت معانيه عادية لا خير فيها. أما الألفاظ فهي معروفة ومحدودة يستطيع كل واحد أن يطلع عليها ويستعملها في كلامه، وهذا الرأي يخالف تماما رأي الجاحظ لأن العبرة عند "الحصري" بالمعاني وليس بالألفاظ كما كان يقول "الجاحظ".

نتطرق الآن إلى نظرة "ابن رشيق" لهذه القضية، فقد خص اللفظ والمعنى بباب مستقل في كتاب العمدة سماه: "اللفظ والمعنى"، ونثر لنا رأيه بكل وضوح قائلا:« اللفظ جسم وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى

واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه... وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ... ولا نجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ... فإن اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ مواتا لا فائدة فيه وإن كان حسن الطلاوة في السبك، وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصبح له معنى».

نلاحظ من خلال هذا أن "ابن رشيق" يعطي الأولوية للألفاظ فالمعنى لا يأتيه الخلل والفساد إلا من جهة اللفظ، فهو يرى أن اختلال الألفاظ يؤدي إلى اختلال المعنى، فالعلاقة بينهما تكاد تكون جدلية كما يرى "ابن طباطبا" و"الحاتمي"، ف "ابن رشيق" أراد أن يقف موقفا معتدلا بين القائلين بتقديم اللفظ وبين أنصار المعنى، فهو يقف مع "ابن قتيبة" في الضرب الذي حسن لفظه ومعناه، وكذلك في النوع الذي حسن معناه وساء لفظه.

وبعد أن قدم لنا رأيه في هذه القضية أورد مجموعة من الآراء على اختلاف اتجاهاته، فبدأ بأنصار اللفظ على المعنى وهؤلاء هم الذين يفضلون اللفظ ويعمدون إلى فخامة الكلام وقوته وهو مذهب العرب من غير تصنع أو تكلف، ويرى أن هذا يدل على القوة وقد جاء في شعر "بشار بن برد" في موضع الافتخار، يقول:

إذا ما غضبنا غضبة مُضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطُرت دما

إذا ما أعرنا سيدا من قبيلة ذرى منبـرا صـلى علينـا وسلمـا

فالألفاظ في هذين البيتين فخمة جزلة والمعاني قوية معبرة، بيد أننا في بعض الأحيان نجد بعض الشعراء يعتنون كثيرا بالألفاظ يختارونها وينقحونها كما هو الحال مع "ابن هانئ الأندلسي" ولكن معانيهم تضيع وسط القعقعات اللفظية. ومن الشعراء من يؤثر سهولة اللفظ إلى درجة النزول بالألفاظ إلى مستوى العامية مثلما فعل "أبو العتاهية" و"عباس بن الأحنف".

مما سبق يمكن القول إن "ابن رشيق" كان يفضل الاعتناء بالألفاظ مع تجويد المعاني.